الخازندار
نور شاهين
صحبة
الموت

صحوة الموت (قصة قصيرة)

الخازندار للنشر الالكتروني

****

العنوان :جوار مدرسة اللواء رفعت عاشور الثانوية- ميت سلسيل- الدقهلية
هاتف : ٠١٠٠٠٠٩٩٣٩٠

العنوان: صحوة الموت
الكاتب: نور شاهين
غلاف: شهد العوني
اخراج فني: الخازندار للنشر الالكتروني

جميع حقوق النشر الالكتروني محفوظة للكاتب/ة تحت اشراف موقع الخازندار للنشر الالكتروني، و غير مسموح بنقله أو مشاركته أو نشره الكترونيا دون اذن مكتوب من الكاتب

الخازندار

صحوة الموت

قصة قصيرة

نور شاهين

صراخ يقطع سكون الليل، آهات وولولة، أصوات باكية تنتحب وأنا ممدد وسط الزحام لا أدري ما بهم، ماذا جرى لهم.. أشعر بهم يتزاحمون وينكبون فوق جسدي، أشتم رائحتهم التي لم أميزها يومًا، ألتمس جوف الحزن المتلبد حول البعض، جمود، حيرة وضياع، وامرأة ثكلى تتكئ على كرسيها المعتاد، تشق جفنيها دموع تحترق وكأنها سقطت من غيوم أغسطس فأحرقت بلهيبها وجهها المتجعد، اختفت أصواتهم جميعها، تلاشت كالضباب وسط ترتيل جوف صوتها المرتعش للقرآن، ودعائها لي بالبقاء -تردد اسمي عاليًا- لتشق بصراخها وجه السماء وكأن الله لا يسمع صمت دعائها فكان الصوت يعلو كأنه زلزال، سيدتان باردتا الملامح كديسمبر تربتان على كتف العجوز، تتظاهران بالحزن على من عليه اختلفتا، زوجتان كنت أظن أنهما حور عين من الجنة، والآن لا أرى سوى صدى الشيطان في صوتهما، وكأنهما قد عقدتا حلف الصلح فوق جثتي وعلى الود تتفقان وكأنني المغتصب للأمان لديهما، ابتلعتُ الأصوات حولي كما البحر يبتلع قرص الشمس عند الغياب، رحلت روائحهما وتلاشى الترتيل بدفء صوتها ولم يبقَ سوى الصقيع وصوت مزلجة تُفتح تُصرصِرُ في أُذُنَّي، وأنا ممدد لا أقوى على الصراخ، غاب بصيص النور العالق في جوف حدقتي ولم يبقَ سوى الظلام وهدوء دامس كجحيم ابتلع ضحاياه، مخدر، متيبس، غادرني الشعور لكن روحي تجاهد للتقرب مني تتلمس قدماي الباردتان، جبيني، أصابع يدي وصدر ربما وقف بين أضلاعه النبض، لن تجد عرقًا حيًا بداخلي لتدخل منه؛ فاستسلمت لصوت الأزيز والصرير العالي؛ فجلست أمام جثتي تُراقب الباقين.. تنظر عبر الهواء نحوهم، تستطعم عيناها أفعالهم، فالروح تتذوق الأفعال قبل أن تراها، تلمسها بمضض، تقرأ توارد الأفكار دون أن تنتظر الكلام المُباح، تترنح أمي باكية، تُرتل ما تحفظه من دعاء وكفيها تشد وثاق كفي، بينما زوجتاي توقفتا عند باب الدار تنظُران لعربة الإسعاف كيف تَشّد رحلها بي بعيدًا عنهم، غائب، متغيب لكن روحي تسمع همساتهم حولها، همسات غريبة تؤكد سكون وضعي وخراطيم أستشعر اغتصابها لجسدي المتعري، سائل يكاد يحرق أوردتي يشق طريقه من ذراعي لأنحاء جسدي، ظلام ساكن الملامح يقتحم الكوكب حولي، ضباب كثيف ورزاز مطر في أيلول وأناس أكاد لا أميز وجوههم تلتقط قطرات الماء من السماء، غريب عن هذا المكان والزمان، غريبة وجهوهم، سمراء قاتمة لفحتها شمس الصحراء، وبين هرج ومرج أسمع لكنة جديدة لا تمس موطني بصلة، أدور حول نفسي في ذات المكان أرى رجلًا عابرًا يرتدي نظارة سوداء،

ناديته:

يا سيدي هل لك أن تخبرني أين أنا؟ وما هذا المكان؟

ابتسم الضرير ابتسامة المُتبصر ورد قائلًا:

هناك تحت شجرة السنديان تجد امرأة تجلس ومعها طفلتين أسألها لعلك تجد لديها الجواب.

نظرت حيث أشار لي فإذا بشجرة سنديان عملاقة تتكئ عليها سيدة بلا ملامح، غائرة الوجه، صفراء البشرة وقد أحاطت نفسها بشالٍ أسود اللون وعليه خطان حمراوان، يجلس جانبها طفلتين تمرران أصابعهما على الخطوط الحمر وكأنهما في مضمار سباق تتسابقان، وما أن ينتهي الخط حتى تعود أصابعهما لنقطة الانطلاق، خَطوت نحوها وقد راقني ما تفعلاه الصغيرتان، رغم كرهي للإناث إلا أن ابتسامتهما شقت لُب قلبي ودخلت دونما استئذان، وقفت بمقربة من السيدة محاولا تجميع قدرتي على الكلام مع شبه سيدة بل شبه إنسان، وبعد تردد مني رفعت رأسها عن طفلتيها وقالت لي:

إني أراك تائه في دنياك فهل تبحث عن نفسك أم عن المكان.

ألجم كلامها لساني ودون إرادة مني بعد برهة نطق لساني بما لا أُريده:

أبحث عن ذاتي فهل لكِ أن ترشديني أين أنا؟

لم تنطق السيدة في حين تكورتا الطفلتان على نفسيهما ودخلتا بين ذراعي الأم وهما تُمعنان النظر في وجهي، شعرت برعب يحيط بقلبي وانقباض شديد أصاب عضلات وجهي، لوهلة ظننت بأنني فقدت ملامحي فهرعت أجري دون هوادة، دون مقصد فارتطمت بالكفيف الذي تلقفني كورقة يابسة وقال لي:

أهدأ فالسنديان لا يزل واقفًا والسيدة تحت ظله.

التقطت أنفاسي التي هربت مني وسألته عن مقصده فهز رأسه قائلًا:

أنظر هناك خلف تلك التلال ستجد بركة ماء بجانبها فتاة عذراء اسألها وستجيبك

عن أي سؤال.

هرعت نحو مقصدي وكأن الهواء يسيرني لا قدماي وبعد أن اجتزت التلال رأيت فتاة حسناء، كزهرة حمراء وسط بستان أقحوان، اقتربت منها دون تردد، غادرني عقلي من جمالها ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أجلس بجانبها القرفصاء، تلعثم لساني وضرب قلبي ضربات الهيام، كل شيء تلاشى أمام شفتيها الصغيرة ولم أشعر بنفسي إلا وأنا غارق في الوحل، تسحبني التربة لأسفل ولا وجود للعذراء، تلطخت البركة بالدماء والطين يكاد يخنقني، صرخت بأعلى صوتي «غفرانك يا رب» فبصقتني الأرض من جوفها لأجد نفسي محاطًا بالظلام وصوت أنثوي عذب يرتل بعض آيات الرب وكفيف يبتسم لي قائلًا:

انظر نحو الضوء.

التفتُ حولي مرارًا وتكرارا، لا ضوء هنا أو هناك، لا نور يشق بصيصه هذا السواد، فتحت عينيَّ على متسعهما اعتقادًا مني بأنني مغمض العينين لكن لا شيء.. لا شيء سوى السواد المطبق وصدى صوت يرتد في وريدي وكأنه يُحيي في ما مات.

أطبقت جفنيَّ مستسلمًا فإذا بنورٍ يكاد يقتلع حدقتي من محجريهما وصوت غريب يقول:

اطمئني لقد عاد.

شَقَقتُ جفنيَّ عنوة ونظرت حولي مرددًا:

أين أنا وما هذا المكان.

اقتربت مني قائلة: أحمدُ الله أنك عدت لي.

عُلقت عيناي بنور القرآن بين كفيها ودموعها التي بللت الصفحات، اقتربت مني ودموع الفرحة تملأ وجنيتها، عانقتني حامدة شاكرة الله بوهبه لي عمرًا جديدا، لكنني تائه وسط أحضانها كمن سقط من الأرض نحو السماء وبقى عالق بين ضفتي حياة أبحث في تلابيب عقلي عن وجه أكاد لا أعرفه، أجمع شتات نفسي من فتات العمر الذي عشته لعلي أجد تفسيرًا لرحلتي الطويلة، ابتعدت عن

أحضانها متسائلاً ؟ ماذا حدث لي يا أماه ولماذا أنا هنا

نظرت بوجهي طويلًا كأنها تقرأ ما ستقوله عنه وأجابتني:

لقد أُصبت بصدمة عصبية جعلتك تسقط أرضًا بيننا وبلحظة فقدناك، فقد توقف نبض قلبك لثواني وبحمد الله وغفرانه عاد من جديد.

إذا لقد مَتُ فعلًا.

وضعت كف يدها على فمي كي لا أكمل وأردفت قائلة:

حفظك الله ورعاك وأطال الله في عمرك، أُشكر الله على سلامتك وأكثر الحمد ولا تتفوه بهذا الكلام المشؤوم.

رددت دون تردد الحمد والشكر لله على الضراء قبل السراء وبادرت بسؤالها:

كم مضى من الوقت وأنا على هذه الحال؟

أجابت والحسرة تملأ صوتها: شهران وعشرة أيام وثلاثة عشر ساعة

أنتِ تحسبين الوقت بدقة أم أن إحدى زوجتيَّ من تحسبه لكِ.

أشاحت بوجهها عني دون أن تُجيب عن سؤالي، فكررته للمرة الثانية، فأجابتني دون أن تنظر لي:

يا بني لا أحد يحسب غيابك كأمك ولا أحد يدعو كما يدعو قلب الأم

لماذا زوجتاي ليستا هنا
سألتها دون أن أعلق على كلامها فقالت دون تردد:هذه قوانين المستشفى فلا يحق إلا لمرافق واحد بالتواجد معك.

تعلقت عيناي في سقف الغرفة تلتهما التهامًا وقد لاح لي وجه العجوز الضرير الذي رأيته كحلم أثناء غيبوبتي أسأل نفسي من هو يا ترى ومن تكون تلك السيدة التي ابتلع وجهها ملامحها ولم يتبقَ منها سوى طفلتان سرقتا خوف العالم بأسره وأقفلتا عليه بين شقي صدرهما، أشعر بأنني أقف بين الموت والحياة على شعرة معلقة فوق نار السموم، ينتفض عقلي و يؤرجحني بين أسئلة عقيمة لا أجد لها

جواب، هل ما رأيته هو خط حياتي وإن هو كذلك فمن هم هؤلاء؟ أم أنا عالق في غياهب الموت وحان وقت القصاص؟

يا رب أعني لتكفير عن ذنوبي فدعاء أمي اختفى الآن وليس هناك من ينتشلني من القاع الموحل فها هو الحق آت ليقتص مني ولا بد أن أجد من يساعدني لأنتشل نفسي من هذه المتاهة فلا زِلتُ أشعر بأنني غارق في الطين، ملوثة روحي.

قطع شرودي دخول أحد الأطباء يخبر أمي بضرورة نقلي لغرفة أخرى، فبعد استيقاظي من الغيبوبة واستقرار وضعي ليس هناك ضرورة لبقائي في غرفة العناية المركزة، أبدت أمي موافقتها على ما قاله الطبيب وخلال دقائق معدودة حضر ممرضان معهما سرير ذو عجلات، تم نقلي عليه وأخذي لغرفة أخرى، لم تكن الغرفة الأخرى خالية كما توقعت فقد كان يشغلها رجلًا عجوزًا بلحية بيضاء أعتقد أنه في العقد الثامن من عمره، كان وحيدًا علي سرير منزوي بجانب نافذة الغرفة

لم يظهر أي اهتمام عندما رآني أدخل، فأشاح وجهه نحو النافذة وبقيت عيناه عالقة بالنافذة لساعات. ذهبت أُمي خلالها إلى المنزل لتُخبر زوجتاي بتحسن حالي وإحضار بعض الحاجيات لي، بقيت أُناظر سرير العجوز المتكتم، شعرت برغبة شديدة بالكلام معه، لا أدري هل هو الفضول أم أن طول صمتي جعلني محبًا للكلام، دون تردد مني بادرت بالحديث معه وسؤاله عن حاله وعما يشكو، ابتسم العجوز ابتسامة صفراء تدل على عدم رغبته في الحديث ..ولكنه أجابني ببضع كلمات قائلًا:

لدي عيون عمياء بقلب متفتح، شديدة البصيرة يجعلني لا أرغب بالحديث معك.

اختنقت الكلمات في حنجرتي ولم أعرف بماذا أجيبه، أشاح وجهه نحو النافذة متجاهلًا وجودي بينما بقيت أتأمل شكله، أسأل نفسي هل هو نفس الرجل الذي رأيته في أحلامي أم يُخيل إلي هذا إنه يشبهه وضرير مثله؟ بادرت بسؤاله رغم تمنعه عن حديثي:

من أنت أيها العجوز؟ هل تقابلنا من قبل؟ هل أنت ذاك الشخص الذي رأيته في حلمي؟

أبتسم لي ونظر نحوي وكأنه يراني بل لوهلة شعرت بأن عيناه تخترق لُب عقلي وتقرأ متاهاته المتعرجة، رد قائلًا دار:

أنا حلم من لا حلم له، حقيقة ملموسة بالعقل لا تراها عيناك، أنا ندم مُعتق لا يَصلح للإصلاح، فجيعة لا تراها إلا في مماتك حيث لا تنفع التوبة ولا يزيدك الندم إلا عذابًا فوق عذاب، أنا المنسي في طريق اللذة المُلام المعذب عند الحساب، هل عرفت من أكون؟

اختنق قلبي بين أضلعي واسودت أسارير بهجتي بالعودة، اختلطت أفكاري كقطع فاكهة داخل خلاط، أحاول اعتصار مغزى كلامه ولكن لم أجد الجواب فعدت أسأله:

بالله عليك أجبني من أنت؟

اختفت ابتسامته وأشاح وجهه عني من جديد وقبل أن أنطق بحرف آخر، علت صفارة الإنذار جانب سريره، اقتحم الطبيب والممرضات الغرفة متجهين نحو سرير العجوز، بلمح البصر أحضروا جهاز الإنعاش وبدأوا بمحاولات يائسة لإنعاش قلبه، تعلقت عيناي بما يفعلون وعلامات الذهول تعلو ملامحي، كيف ومتى ولماذا ؟ ألم يكن يحدثني منذ دقائق، جُن عقلي حين سمعت الطبيب يقول:

الساعة الثانية وخمس وثلاثين دقيقة، توقف مُفاجئ لعضلة القلب، هذه ساعة وفاته؟

غادر العجوز دون أن يجيبني على أسئلتي.

التفت الطبيب نحوي قائلًا:

لا تقلق سنأخذ الجثة من هنا.

التقط يدي اليسرى يتفحص نبضي وأكمل حديثه:

ضربات قلبك بطيئة بعض الشيء حاول الاسترخاء لأتمكن من فحصك

أردت سؤاله عن العجوز لكن لساني ثقيل وكأن جبل قد وقف عليه، لُجم لساني وألف سؤال يعتصر الحروف داخل حُنجُرتي وما زاد الطين بله سؤال وجهه الطبيب للممرضة:

أين عائلة المريض

لتجيبه الممرضة:

لقد جاءت زوجته للتو وهي تنتظرنا خارج الغرفة.

انطلق لساني مقاطعًا كلام الممرضة: ألم تأتِ أُمي معها

نظرت الممرضة نحوي باستغراب واضح فأجابتني ببرود:

أمك توفيت منذ عام مضى.

همهم الطبيب بانزعاج معربًا اعتراضه على كلام الممرضة قائلًا:

ما بك هل جننتِ لتقولي له هذا وهو بهذه الحالة؟

لكن الممرضة أجابته بأنني أعرف بوفاتها وأني من أحضرها إلى المستشفى لاستخراج التقرير الطبي وأخذ الأمر بدفن جثمانها.

علا صوتي معترضًا: إنها تكذب لقد كانت أُمي برفقتي ألم تروها معي في غرفة العناية المركزة ألم تروها حين غادرت لإحضار حاجياتي وأخبار زوجتيَّ بأمر استيقاظي من الغيبوبة.

تلاشى وجه الممرضة وتبدل بوجه زوجتي الأولى

رأيتها تقف بجانب سريري ولا ملامح تعتلي وجهها لكنني أدركت أنها هي من حديثها الذي اخترق كياني كسمً زُعاف يحرق أوردتي ببطء شديد دون رحمة:

ألا زلت تُقاوم الموت وتتمسك بحبال الحياة الواهية لم لا تغادرنا وحسب، اتركنا وارحل لعل الرحمة تطرق بابنا بعد أن قطعتها عنا؟

لا لا ترحل قاوم وعد من جديد، أصلح ما هدمته بغبائك، اتح عيناك لترى خيانة زوجتك المراهقة التي تزوجتها رغم أنفها، أفتح عينيك لترى خوف ابنتيك منك وكرههما لك، عد لترجع لهما ما يكفيهما عن حاجة الناس، عد وكفكف دموعهما وخذ بيديهما أوصلهما لبر الأمان.

انهمرت الدموع كشلالات تأبى التوقف أمسكت بيدي وقالت بصوت مختنق:

أنا وابنتاي لن نسامحك على ما فعلته بنا.

زلزلت كلماتها كياني وشعرت بأني دخلت دوامة رمادية كأنني أنتقل من عالم لآخر وصدى صوتها يشق لب روحي.

اذهب لا سامحك الله على ما فعلته لا سامحك الله.

دون سابق إنذار أجد نفسي عاريًا والظلام يحيطني أدور حول نفسي كمن فقد بصره أبحث عن بصيص ضوء يقنعني بأنني أرى، لا شيء البتة سوى وميض خافت ينشق مني رويداً رويدا فيخرج ظِلُ أسود على شكل العجوز الضرير وميض أبيض يحتل يسار صدره، لقد كان عاريًا مثلي كأنه أنا بشكل كهل مترهل أكثر مما رأيته في المرات السابقة لم أهتم لشكله ولم أسأله من هو فجل ما أردتُه أن يفسر لي ما رأيته فيما سبق، أمسكت ذراعه قائلًا:

ها أنت أخيرًا، لقد رأيتك مجددًا لتفسر لي كل شيء هذه المرة لن أتركك قبل أن تجيبني على أسئلتي

ابتسم ابتسامة عريضة ورد قائلًا:

ما رأيته لم يكون سوى حياتك وما اقترفت يداك

فالسيدة التي فقدت ملامحها هي زوجتك الأولى حين حرمتها على نفسك وحرمتها من حقوقها وتركتها معلقة لا حرة ولا حبيسة، أما الفتاتان فهما ابنتاك اللتان افتقدتا الأمان في غيابك حتى إذا أتيتهم ظنوك غريبًا وعنك ابتعدتا فجل ما رأتاه منك كرهك للإناث وخطوط حمراء تخشيان تجاوزها، والسنديان لم يكن سوى أنت، استظلوا بظلك رغم اختفائه فهم بإسمك مرتبطون والحسناء هي زوجتك التي اغتصبت طفولتها وتزوجتها دون إرادتها فتركتك وهرعت خائنة لأحضان حبيبها

الذي يناسب عمرها فأغرقتك بوحل الدنيا ولوثتك قبل أن تلوث نفسها، والآن هي تحمل بجنينه منذ شهران، سيحمل ولده الذي حرمت بناتك من حضنك لأجله اسمك وسيأخذ ورثك سينعم بما تركته ومن هن من صلبك ستجتران الأرض بحثًا عن مأوى، انهارت أعصابي وكأن الدنيا تدور بي، سقطت أرضًا ودموع الندم تغتصب عيناي عنوة لتحفر أثرها على وجنتي

رَبت العجوز على كتفي قائلًا:

لا زال لديك روح فأصلح ما يمكن إصلاحه

قُلت له: من أنت؟

أنا روح ضميرك المنسي، من أُلام وألوم نفسي بنفسي، أنا من تُخدره حين تريد وتجلده، أنا باطنك وطريق نجاتك إن أردت وإن شئت أكون هلاكك.

تردد صدى كلمة هلاكك في أُذني وارتد لدرجة كدت أفقد وعيي فيها وبلا فاصل رأيت ظله يندمج بي، كان هذا آخر ما قاله لي، دونته بأمانة كما طلب مني، أنا الممرضة التي شهدت صحوة موته، كتب وصيته الأخيرة وأخبرني برحلة ما قبل الموت، كما طلب مني أن تسامحيه وتعتني بابنتيه جيدًا.

تمت بحمد الله